بـــدء العلاقات العلميّة بين الهند والعرب

من المعروف أنه لم يكن هناك اسم واحد يطلق على الشبه قارة الهندو ــ الباكستانية بأكملها بل كانت الأقاليم المختلفة تعرف بأسمائها كل على حدة وربمـــا شمل اسم العاصمة جميع المناطق الواقعة تحـــت سلطتها أو نفوذها . وكان نهر « السند » الذي يذكره العرب القدماء باسم « مهران » ــ معروفا باسمـــه الحالي الى أن امتد اليه نفوذ اهل فارس فى العصر القديم فسموه « هندهو » جريا على عادتهم فى ابدال السين فى السنسكرتية بالهاء ، ولذلك امثلة كثيرة فى اللغة الفارسية القديمة . ثم جاء العرب فأقروا اســم « السند » للأراضي الواقعة على ضفتي ذلك النهر ، وبداوا يطلقون « الهند » على ما وراءها (1) .

كان العرب قد عرفوا الهند قبل الاسلام واحبوها الى حد انهم اتخذوا منها اسما لنسائهم ، ولكنهـــم انما عرفوا عطورها واحجارها وسيوفها وثمارها ولما كانت تجارتهم عن طريق البحر كان من الطبيعـــي أن يقتصر اتصالهم علـــى الشواطىء والسواحـــل ، ولاسيما الساحل الغربي والجنوبي ، لا أدل على ذلك من أسماء فى العربية هي فى الأصل اسماء للأمكنـــة التي كانتتستورد منها مسمياتها، مثل المندل والهيل(2) ثم جاء الاسلام فصارت هذه المعرفة والصلة التجارية من اهم ما وجه المسلمين من عرب عمان والمناطـــق الساحلية المجاورة لها الى شن الغارات البحرية بغية تأسيس دعائم حكمهم على مواقع من ساحل السند وكجرات ، تهانة (تانه) بالقرب من بومباي وبهـــروج (بروص) وديبل بالقرب من كراتشي ، وكان ذلك فى عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي كان شديد الحذر من « من حمل الدود على العود » ثم تكـــررت محاولة من هذا القبيل فى عهد عثمان ايضا ، ولكن لم يكن لهذه الغزوات اثر يذكر ، ومضى العرب فى هذه الاثناء قدما من نصر الى نصر حتى تم لهم فتح بلاد فارس كلها وصارت حدود دولتهم الشرقية تتاخـــم حدود مملكة السند الغربية مباشرة بحيث تســـنى للبغاة والطغاة التسلل عبر الحدود والالتجاء بملـــك السند ، مما زاد فى اهتمام العرب بجارتهـــم ، وفى الوقت الذي كانت الممالك الشرقية للدولة الأموية قد استكملت قوتها واستعدادها لشن هجوم شامل برا وبحرا معا بعد ان انتظمت أمورها وسلست صعابها تحت امرة حاكمها الحازم ذي البأس الشديد الحجاج ابن يوسف الثقفي ، فى ذلك الوقت سببت الصلـــة التجارية بصورة مألوفة فى التاريخ القديم والحديث على السواء ، التدخل السياسي والعسكري مـــن جانب العرب ، وذلك بأن بعض القراصنة استولـــوا بالقرب من ديبل على مركب كان ينقل الى العـــراق عددا من الأرامل واليتامى لبعض التجار العرب الذين وافتهم آجالهم فى جزيرة سيلان ثم اعتذر داهر ملـــك السند بعجزه عن تنفيذ طلب الحجـــاج بمعاقبـــة المجرمين وتسليم الأسرى ، فلم يكن منه هو الآخر الا ان ندب ابن اخيه الشاب محمد بن القاسم الثقفي لغزو السند نهائيا (3) .

دخل محمد بن القاسم السند فى سنة 89 هـ ووفق فى انجاز مهمته توفيقا تاما ، فانه تمكن فى بحر خمسة اعوام من القضاء على مملكة داهر وفتحهـــا للمسلمين من منابع نهر جهيلم بكشمير فى الشمال الى البحر فى الجنوب ، الى حدود مملكة قنوج (كنوج) بالقرب من ملتان وحدود كجرات فى الشرق ومنذ ذلك الحين ظل اقليم السند جزءا من الدولة الأمويـــة ، تعاقب على حكمه عدد من الأمراء العرب ، سعـــى بعضهم لتوسيع نطاقه فى الشرق وعلى ساحـــل كجرات فلم يلقوا فى ذلك كبير نجاح ، ولكنهم على كل حال بقوا اقوياء قادرين على اخماد الثورات مالكين لأزمة الأمور فى الداخل .

وهكذا اصبحت للعرب علاقات سياسية وطيدة مع الهند بعد ان كانت لهم علاقات تجارية قوية معها فيما قبل الاسلام ، وكان من المحتوم على هذه القاعدة الجديدة للعرب داخل اراضي الهند ان تصبح مبـــدأ

---

1) الدكتور السيد سليمان الندوي : عرب وهندكي تعلقـــات ص 12 .
2) على الترتيب ، العود المستورد من « كورومندل » كان العرب يطلقون عليها « المعبر » ايضا وفوه « هال » أو « هيل » (بالعامية : حب هان) المستورد من (رأس) هيلي او « ايلي » بجنوب الهند بالقرب من كورومندل ، كانت ميناء ومدينة عـــامرة ايام زيارة ابن بطوطة لها ، راجع الرحلة 81/4 .
3) الفتوح للبلاذري 431 ــ 432 و 435

خط لسير العلوم والآداب الهندية الى عاصمتهم ؛ ولكن الحركة — لأسباب طبيعية عامة — انما نمت وازدهرت فى العهد العباسي الأول . أما فى العهد الأموي فلا يلفت نظرنا الا ظواهر معينة ؛ هي بمثابة المقدمة لما نحن بصدده فى مقالنا هذا .

كان العرب قد عرفوا من قبل الزط (جات) والميد وهما قبيلتان من قبائل السند عرفتا بالغزو والتهور والشراسة فجندهما الفرس ، وربما كثر احتكاكهما بالعرب حتى اننا نجد عبد الله بن مسعود يقول عن بعض من رآهم فى صحبة النبي صلى الله عليه وسلم « رجال كأنهم الزط أشعارهم وأجسامهم » (سنن الترمذي ؛ باب الأمثال) مما يدل على انهم كانوا معروفين لدى العرب تماما فى ذلك الوقت (4).

ثم بعد أن تم فتح فارس على أيدي العرب انخرطت هاتان القبيلتان ولاسيما الزط فى جنود الاسلام ؛ استخدمهم علي رضي الله عنه لحراسة أموال البصرة فى وقعة الجمل ، وأنزلهم معاوية فى مدن الشام الساحلية لمواجهة الروم ، وعمرهم وليد ابن عبد الملك فى انطاكية (5) . هذا ما يتعلق بالعصر الذي سبق فتح العرب للسند ، أما بعد ذلك فقد تيسر للعرب أن يعرفوا لا الزط المحاربة فحسب ، بل السنديين عامة ومن اهم ما ساعد على ذلك نقل عدد كبير من العبيد والاماء اسرى الحرب الى العاصمة(×) وبعض المدن الكبيرة الأخرى ، وهنالك بدأ العرب يتبعون خصائص وعوائد هذا العنصر الجديد بعناية كبيرة ، كما أن اولئك الدخلاء اقبلوا على الأخذ بأسباب الحضارة العربية بجد واهتمام ؛ ولم يلبث العبيد من اهل السند أن بدأوا يساهمون مساهمة فعالة فى الحوادث الجارية حتى انه ذكر أن أحدا منهم (ابن زياد بن ابي كبشه) اشترك فى قتل الخليفة الوليد بن يزيد فى سنة 126 هـ (6) أما مدى سرعة تعربهم واندماجهم فى المجتمع والثقافة العربية فيمكن أن نقدرها بوجود علماء أجلاء أمثال ابى معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي (7) وابن الاعرابي (8)؛ ورجال الحكومة مثل السندي بن شاهك (9) وشعراء أمثال ابى عطاء السندي وأبي الاصلع (10) كلهم موال انحدروا من أصل سندي لم يتجاوز عهدهم جيلين و ثلاثة على فتح السند ، وقد استغنيت بذكرهم عن التعرض للذين نشأوا فيما بعد .

لا شك ان الارقاء وغيرهم من عامة اهل السند لم يكونوا ليعرفوا العرب الا برطانتهم وجعلهم الجيم زاء وببعض الملح تتعلق بالعجائز والخصيان منهم (11) وما الى ذلك من عجائب العوائد وغرائب الاخلاق كما اشرت اليه آنفا وربما كان وجودهم مثار التساؤل بين أهل الفكر عن مدى الحضارة والعلوم وحكمة الهند ومبعث تطلع الاذهان الى الوقوف عليها ، ولكن التبادل العلمي ونقل الآداب الهندية الى العربية انما كان يتوقف — ولا غرو فى ذلك — على الجمع بين الخاصة واهل العلم من الطرفين العرب والهنود ، وهل يتأتى ذلك الا اذا استقرت الاحوال الداخلية

---

4) يرجح أن الامام ابا حنيفة كان من سلالة هؤلاء الزط ، فانه ذكر ان جده زوطي كان من كابل (حسب الرواية المشهورة . راجع ابن خلكان وتهذيب الاسماء للنوي) نقل الى الكوفة بين اسرى الحرب أما ادعاء حفيده اسماعيل بن حماد ، الانتساب الى اسرة مالكة من الفرس فتلك محاولة معروفة حاولها كثير من الموالي لاثبات اصالتهم فى العز الذي نالوه فى الاسلام .

5) البلاذري الفتوح : 375 — 379 .

× انظر قول ابي النجم العجلي : علقت خودا من بنات الزط الخ (الاغاني)

6) ابن الأثير 217/5 .

7) شذرات الذهب 278/1 سمع عنه الواقدي بالمدينة .

8) « كان ابوه زياد عبدا سنديا » ياقوت : معجم الادباء .

9) السندي بن شاهك مولى جعفر المنصور ، كان أميرا على دمشق فاخرب سورها فى فتنة ابي الهندام فى سنة ست وسبعين ومائة فى خلافة هرون وولي القضاء ببغداد وكانت وفاته هناك . ترجمته فى مرآة الزمان نسخة دار الكتب المصرية الجزء السادس الورقة 42 ، وكان للسندي هذا ابن يسمى ابراهيم روى عنه الجاحظ كثيرا (البيان والتبيين 1 \ 141) .

10) أبو عطاء معروف ترجمته فى الأغاني وأبو الأصلع الهندي له ذكر فى المرزباني 513 (« ابو الضلع » كذا فى الفهرست 164) والحيوان 171/7 .

11) البيان والتبيين (تحقيق عبد السلام هارون) 70/1 ، 74 ، والحيوان 118/1

وتفرغ أولو الامر لتشجيع الحركات العلمية ورعاية الادب وذويه ؟

كانت أواخر أيام بني أمية الوهن والاختلال والفتن اعقبها الانقلاب العباسي فلاقى أبو مسلم الخراساني بعض العناء فى اخضاع منصور بن جمهور الكلبي ذلك الطاغية الذي كان قد اغتصب ولاية السند منذ زمن غير بعيد ، ولكنه نجح أخيرا فى ضم هذه الولاية للسفاح على يد موسى بن كعب التميمي فى سنة 134 هـ . وقد اقترن ظهور العباسيين بنقل العاصمة من دمشق الى بغداد فازداد التقارب من السند جغرافيا ، مع ما هو معروف عن الخلفاء العباسيين وأعيان السلطنة فى عهدهم من الميل الشديد الى الفرس والعجم وحضاراتهم وآدابهم .

لم تكد الأمور تنتظم فى العهد الجديد حتى نرى وغدا من أهل السند يفد على السفاح ، وذلك قبل موته بثلاثة أيام (12) . لا نعلم اذا كان هذا الوفد يضم أحدا من أهل العلم ، ولكن على كل حال لم يكن له أثر يذكر لمصادفة وصوله فى وقت غير ملائم .

ثم استمرت الأحوال تتهيأ لجلب العلوم من الخارج فى عهد المنصور مما حفز أهل العلم فى السند الى عرض ما لديهم ، فوصل أحد منهم كان متضلعا فى علم الهيئة والرياضيات ، الى بغداد فى سنة 154 هـ ، فتقدم الى الخليفة بكتاب «سدهانت» (السند هند ×) الذي قام ابراهيم الفزاري بترجمته الى العربية (13) واطلاع العرب على « سد هانت » يعد نقطة هامة لا من حيث كونه بداية حسنة للتبادل العلمي بين الهند والعرب فحسب ، بل من حيث الآثار المترتبة على ذلك ايضا ، فانه وان يعلم بالضبط متى تعلم العرب « الأرقام الهندية » فالمظنون أنهم تعلموها عن طريق ترجمة « سدهانت » الذي يحتوي البابان الثالث عشر والرابع والعشرون منه على بسط وبيان لتلك الأرقام (14) . على كل حال نال « سدهانت » من اقبال العرب وتقديرهم ما كان سببا لرفع صيت الهند الى درجة عالية ، آية ذلك أنهم قاموا فى مدة قصيرة بترجمة كتابين آخرين فى علم الهيئة هما « ارجبهذ » (الأصل : آرية بهت) و « أركند » (الأصل كهندد اكهندبك Khanda-Khadyaka) . نقل الأول ابو الحسن الاهوازي والثاني يعقوب بن طارق فى سنة 161 هـ (15) .

---

12) تاريخ اليعقوبي 433/2 .

× قال البحتري (د الجوائب 160/2) : السند بالسند هند ذا بصر ان لم تفق حاسبيه تنتصف

13) البيروني : كتاب الهند ص 208 .

14) عرب وهندكي تعلقات ص 134 هذه الارقام معروفة عند العرب بـ « الارقام الهندية » وعند الافرنج بـ « الارقام العربية » [Arabic figures] لأنهم بدورهم أخذوها من العرب ، أعني عرب الاندلس وربما سماها عرب الاندلس « حساب الغبار » لأن الهنود كانوا يرسمونها على التراب أو الرمل بدل اللوحة أو السبورة لتعليم الاولاد كما يشاهد ذلك فى بعض أرياف الهند الى يومنا هذا . انظر قول الشاعر يصف التخت الذي يضرب عليه حساب الهند :

وقلم مداده تراب
فى صحف سطورها حساب
يكثر فيها المحو والاضراب
من غير ان يسود الكتاب
حتى يبين الحق والصواب
وليس اعجام ولا اعراب
فيه ولا شك ولا ارتياب

(الحصري : زهر الآداب 90/2)

15) هاك الالفاظ الهندية التي بتيت كمصطلحات علم الهيئة بالعربية : « كردجه » (الوتر المستوي) اصلها بالسنسكريتية « كرمجيا » ، « جيب » اصلها « جيوا » ، « أوج » اصلها « اوج » بالجيم الفارسية ، « أرين » من « أجين » اسم لبلدة فى وسط الهند ، « ادماسه » اصلها « ادهماسا » .

وعلى أثر هذه البداية الحسنة لابد أن الأمراء واهل العلم فى بغداد قد عرفوا واعترفوا ببراعة اهل الهند فى ميادين اخرى ؛ ولاسيما الطب ، فلذلك نراهم يشيرون على هارون الرشيد ابان مرضه باستقدام الطبيب الهندي الشهير « منكه » (مانك) وورد الطبيب الهندي فنج فى علاج الخليفة وحظي عنده وبقي يشرف على نقل الكتب من اللغة السنسكريتية (16) .

وفى هذه المرحلة اي بعد أن كان الطريق قد مهد لحركة نقل العلوم من الهند الى بغداد يطالعنا التاريخ بظاهرة قوية ، يجدر بنا أن نقف عندها لعلنا نكتشف حقيقة طالما غمضت على كثير من المؤرخين القدماء والمحدثين . وتلك الظاهرة هي التي اشار اليها ابن النديم بقوله :

« الذي عني بأمر الهند فى دولة المعرب يحيى ابن خالد وجماعة البرامكةواهتمامها بأمر الهند واحضارها علماء طبها وحكمائها » (كذا / . الفهرست 345 .

فما هو مبعث هذه النزعة الى الهند وعلومها فى نفوس البرامكة ؟

لنبحث عن أصل البرامكة حتى نصل الى جواب لهذا السؤال .

البرامكة من أصل بوذي لا مجوسي

المعروف عن البرامكة ان اجدادهم كانوا يتولون قبل الاسلام معبدا للمجوس ببلخ ، وكان « برمك » لقبا لرئيس سدنة ذلك البيت الذي كان يسمى « نوبهار » . أما أصل كلمة « برمك » من ناحية اللغة فلم يتعرض له القدماء ، وجاء المتاخرون من المؤرخين واصحاب المعاجم من الفرس فقالوا بأن الكلمة مشتقة من المصدر « برمكيدن » اي المص بالفارسية وأيدوا قولهم هذا برواية مؤداها ان اول « برمك » اسلم (بعد ان خرب قتيبة بن مسلم « نوبهار » فى سنة 86 هـ) لما وقف أمام الخليفة اضطر الى الاعتراف بأنه كان يحمل معه سما فى خاتمه حتى يمصه (بالفارسية : « برمكم ») اذا وجد الموت خيرا من حياة الخزي ،

وهذه الرواية مختلقة بدليل أن المؤرخين مجمعون على ان « برمك » لقب قديم كان يلقب به رؤساء « نوبهار » قبل الاسلام بكثير . وقال بعض آخرون ان « برمك » اسم لمكان والنسبة اليه « برمكي » . واتى ابن الفقيه الهمداني وياقوت بتعليلين فى منتهى الغرابة حينما قال الأول ان « برمكة » يعني حاكم مكة (17) وذلك لأن معبد بلخ كان قد انشىء ليكون نظيرا لمكة ، وقال الثاني أن « بر » هنا بمعنى الابن وأن « برمكة » انما يعني ابن مكة (18) وهذه الأقوال كلها ظاهرة البطلان لا تستحق التعليق عليها بشيء .

وذهب الكاتب الهندي عبد الرزاق مؤرخ « البرامكة » (باللغة الأردوية) الى أن أصل «برمك» هو « برمغ » — « بر » يعني « كبير » و « مغ » [magos باليونانية و « مجوس » بالعربية) يعني عبدة النار — وعلى هذا « برمك » يكون معناه « رئيس المجوس » وهذا القول يظهر انه قريب جدا الى الصواب ، مع انه لم يعرف بعد مثال آخر لابدال « الغين » « بالكاف » فى التعريب ، الا انه قد بقي أن نتأكد اذا كان معبد بلخ معبدا للمجوس يعبدون فيه النار أو معبدا للبوذيين يعبدون فيه الأصنام أو « البد » على حد تعبير المؤرخين العرب .

من حسن الحظ ان بأيدينا وصفا مسهبا لهذا المعبد عند المسعودي والهمداني وياقوت يمكننا ، اذا أمعنا النظر فيه ، من الاهتداء الى جواب على هذا السؤال وهاك ما يقوله ياقوت عنه :

« قال عمر بن أزرق الكرماني : كانت البرامكة اهل شرف على وجه الدهر ببلخ قبل ملوك الطوائف، وكان دينهم عبادة الاوثان ... ونصبوا حوله (اي حول بيت النوبهار) الأصنام وزينوه بالديباج والحرير وعلقوا عليه الجواهر النفيسة ... وكانت الفرس تعظمه وتحج اليه ، وتهدي له وتلبسه أنواع الثياب وتنصب على أعلى قبته الأعلام ، وكانوا يسمون أعلى قبته « الاستن » وكانت مائة ذراع فى مثلها وارتفاعها فوق مائة ذراع بأروقة مستديرة حولها وكان حول البيت ثلثمائة وستون مقصورة ليسكنها خدامه وقوامه

16) ابن ابي أصيبعة 33/2 .

17) كتاب البلدان ص 323 « فسموا سادنها الاكبر برمكا » اي انه باب مكة ووالي مكة فصار كل من ولى منهم ذلك يسمى برمكا » .

18) معجم البلدان (نوبهار) « كانوا يسمون السادن الاكبر « برمكا » لتشبيههم البيت بمكة يسمون سادنه ابن مكة فكان كل من ولي منهم السدانة برمكا » .

وسدنته ، وكان على كل واحد من سكان تلك المقاصير خدمة يوم لا يعود الى الخدمة حولا كاملا ، ويقال ان الريح ربما حملت الحرير من العلم الذي فوق القبة فتلقيه بترمذ وبينهما اثنا عشر فرسخا ... وكانت ملوك الهند والصين وكابل شاه وغيرهم من الملوك تدين بذلك الدين وتحج الى هذا البيت ، وكانت سنتهم اذا هم وافوه أن يسجدوا للصنم الأكبر ويقبلوا يد برمك » .

هذا الوصف لياقوت فى معجم البلدان (النوبهار) يطابق لفظا ما اورده الهمداني (البلدان ص 3 — 322) بحيث يصبح من المؤكد انهما استقياه من مصدر واحد وان لم يذكر هو الآخر اسم عمر بن ازرق الكرماني كما فعله ياقوت هو الأول . كذلك يوافق هذا الوصف معنى ما جاء فى مروج الذهب — 48/4 — للمسعودي (أيضا آثار البلاد للقزويني 221) ومما يجدر بالملاحظة والتنبيه عليه فى هذا الوصف :

اولا : لم يرد فيه ذكر للنار حتى يقال ان النوبهار كان بيتا من بيوت النار .

ثانيا : بالعكس نص فيه على ان معبد بلخ لم يتجاوز ان يكون بيتا لعبادة الأوثان والأصنام التي كان من بينها « الصنم الاكبر » الذي كانت سنتهم ، اذا هم وافوه ، أن يسجدوا له .

ثالثا : من المعروف أن « ملوك الهند والصين وكابل شاه » ولنضف اليهم نيزك طرخان ملك تركستان الذي جاء عنه فى الهمداني وياقوت (وستنقل هذه القطعة فيما بعد) أنه غضب من قبول البرامكة الاسلام وزحف اليهم بجيشه ونكل بهم كل هؤلاء الملوك لم يكونوا يدينون الا بالدين البوذي (Budhism) .

رابعا : ان (« الأستن » « آسبت » « است ») ليست الا اشكالا محرفة لكلمة « استب » بالأصل « استوب » (stupa) وهي تطلق على معبد البوذيين الذي اودع فيه رماد جثة بوذا ، وقد كان الرماد قسم ودفن داخل قباب مبعثرة فى عدد من الممالك التي كانت البوذية سائدة فيها ، ولا تزال المعابد من هذا النوع موجودة فى الهند منها « استوب سانجي » بالقرب من مسقط راسي مدينة بوفال فى وسط الهند . يظهر ان الكتاب كانوا اعرف بكلمة « الأستن » اي العامود بالفارسية فحرفوا « استب » الى ذلك الشكل .

ثم هناك ادلة اخرى ترشدنا الى الجزم بأن معبد بلخ انما كان معبدا للبوذيين وهي :

أ) ان بلخ جزء من اقليم خراسان وما وراء النهر ومن المحقق ان « على هذا المذهب السمنية اي البوذية ، كان اكثر هل ما وراء النهر قبل الاسلام » (الفهرست 345) .

ب) يزيد المسعودي فى وصف النوبهار فيقول : « وقد ذكر بعض اهل الرواية والتنقير انه قرا على النوبهار ببلخ كتابا بالفارسية ترجمته : قال بوذاسف ابواب الملوك تحتاج الى ثلاث خصال عقل وصبر ومال واذا تحته بالعربية (19) كذب بوذاسف الواجب على الحر اذا كان معه واحدة من هذه الخصال ان لا يلزم باب السلطان » .

اما « بوذاسف » فلاشك ان المراد منها « بوذا » لا غير ولعل اصلها « بودهاستور » كما ذهب اليه المحقق زخاؤ (انظر مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب الهند) .

وقد وردت هذه الحكاية ايضا فى مسالك الابصار (224/1) لابن فضل الله العمري وهناك « سوراشف » بدل « بوذاسف » مصحفا

ج) قال العمري ايضا : « بناه منوشهر الهندي وكان يأتيه من الصائبة من يتقرب بالقمر » لا يستبعد ان يكون المراد من المتقربين بالقمر » الهندوس لا غير بناء على ان البعض يرون أن أصل «هندو» هو « اندو » اي القمر (قارن المسعودي : « النوبهار ... بناه منوشهر ... على اسم القمر »).

د) قد ورد لهذا المعبد ذكر كمعبد للبوذيين فى مذكرات السائح الصيني هوان كوانك الذي زار بلخ فى القرن السابع الميلادي اي قبيل او بعيد فتح العرب لها (دائرة المعارف الاسلامية « Barmakids » .

فهل من شك فى ان النوبهار لم يكن بيتا من بيوت النار يعبد فيه المجوس بل انما كان معبدا للبوذيين يعبدون فيه الأصنام او «البد» واذا وثقنا من هذا فليس من الصعب الاهتداء الى ان اصل النوبهار هو «نووهار» وهار اسم معروف لمعبد البوذيين والخانقاه حوله ولا

19) فى مسالك الابصار : « ثم لما ملك الاسلام مدينة بلخ ، كتب تحت هذه الكتابة بالعربية ... الخ » .

يزال اقليم الهند الشمالية الذي ولد فيه بوذا يسمى « بهار » (Bihar) الى وقتنا هذا . وليس بمستغرب ان خفي الامر على العرب فانهم كانوا أعرف بكلمة « بهار » الفارسية فلذلك قالوا : « وتفسير النوبهار البهار الجديد لأن « نو » الجديد ؛ وكانت سنتهم اذا بنوا بناء حسنا او عقدوا بابا جديدا او طلاقا شريفا كللوه بالريحان وتوجوا ذلك بأول ريحان يطلع فى ذلك الوقت، فلما بنوا ذلك البيت جعلوا عليه اول ما يظهر من الريحان ؛ وكان البهار فسمى نوبهار لذلك » (ياقوت)، هذا وقد اتفق للعرب ابان فتحهم للسند « ان عرفوا معابد للبوذيين من قبيل وهار ؛ وهاك ما أورده البلاذري فى وصف واحد منها :

وكان بالديبل بد عظيم عليه دقل طويل وعلى الدقل راية حمراء اذا هبت الريح أطافت بالمدينة ، وكانت تدور ، والبد فيما ذكروا منارة عظيمة يتخذ فى بناء لهم فيه صنم لهم او اصنام ليشهر بها وقد يكون الصنم فى داخل المنارة ايضا ، وكل شيء اعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد والصنم بد ايضا » .

او لا تؤكد المقارنة بين وصف معبد البوذيين هذا وبين وصف النوبهار بأن الواحد لم يختلف عن الآخر ؟

كذلك نرى العرب يخبطون خبط عشواء فى تفسير « برمك » فانهم لم يكونوا ليتصوروا ان تكون كلمة « مك (مكا) » غير « مكة » فاضطروا الى القول ان البرامكة « وصفت لهم مكة وحال الكعبة بها ولما كانت قريش ومن والاها من العرب يأتون اليها ويعظمونها فاتخذوا بيت النوبهار مضاهاة لبيت الله الحرام » (ياقوت) أما « بر » فقد كان فى متناولهم كلمة « بور » بمعنى الابن بالفارسية فلجأوا اليها . ثم جاء المؤرخون واللغويون من الفرس فلم يكن منهم الا ان اعتمدوا على علمهم باللغة الفارسية فتخرصوا بأن تكون « برمك » مشتقة من « برمكيدن » ثم دعمسوا هذا التخرص برواية مختلفة كما مر . ولكن الحقيقة التي تنسجم « وهار » واباها هي أن « برمك » اصلها باللغة السنسكريتية « برمك » ومعناها الصدر او ذو الرئاسة العليا ، لم يلقب بهذا اللقب احد من سدنة بيوت النار او معابد المجوس ، بل انما اختص به رؤساء النوبهار لأسباب ذكرناها آنفا .

ولعل من الواجب فى هذا المقام ان اثبت ان اول من اشار الى كون « النوبهار » معبدا للبوذيين (وهار) هما المستشرقان زخاو (مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب الهند ص 31) وبرتهالد (Barthold) (دائرة المعارف الاسلامية) (Barmakids) كما ان الأول هو الذي بحث عن الأصل السنسكريتي لكلمة « برمك » ثم تتبع نتائجهما الكاتب الهندي الدكتور السيد سليمان الندوي الذي يرجع اليه الفضل فى بسط الدلائل كما قد اقتبستها هنا من كتابه « عرب وهندكي تعلقات 102 — 124 ، ثم يمضي الدكتور السيد سليمان الندوي خطوة اخرى فيلفت النظر الى ان القول بانحدار البرامكة من أصل ايراني ينتقض أيضا بما جاء به ابن الفقيه الهمداني (وياقوت حرفا بحرف) وهذا نصه :

« فلم يزل يليها برمك الى أن فتحت خرسان ايام عثمان بن عفان وقد صارت السدانة الى برمك ابي برمك ابي خالد فوجه برمك الى عثمان فى الرهائن فورد المدينة ورغب فى الاسلام فأسلم وسمي عبد الله ورجع الى ولده وصارت البرمكة فى بعض ولده فكتب بعض الملوك الى برمك يعظم ما أتى من الاسلام ويدعوه الى الرجوع فى دين آبائه فكتب اليه برمك اني انما دخلت فيه اختيارا وعلما بفضله عن غير رهبة (ولا رغبة) (20) ولا ارجع الى دين بادي العوار متهتك للاستار فغضب الملك وزحف الى برمك بجمع كثيف فكتب اليه برمك قد عرفت حبى للسلامة واني ان استنجدت عليك الملوك انجدوني فانصرف والا صرت الى لقائك ، فانصرف عنه ووادعه ثم لم يزل ذلك الملك واسمه نازك (نيزك) طرخان يغتر برمك ويطلبه حتى بيته وقتله وعشرة بنين له فلم يبق لهم برمك سوى برمك ابي خالد فحملته امه وهربت به وكان صغيرا الى بلاد قشمير ، فنشأ برمك وتعلم النجوم والطب وانواع الحكمة ، وبقي على شركه واصابهم وباء فتشاءموا بمفارقة دينهم فكتبوا الى برمك فقدم عليهم فأجلسوه فى موضع أبيه فتولى امر النوبهار فسمي برمكا وتزوج ابنة ملك الصغانيان فولدت له الحسن وبه كان يكنى وخالدا وعمرا وام خالد ، وسليمان بن برمك من امراة غيرها من اهل بخارى وكان صاحب بخارى اهدى الى برمك جارية فولدت له كال بن برمك وام القاسم وبنتا اخرى (كتاب البلدان 323 — 324) .

20) كذا . زيادة فى ابن الفقيه لا توجد فى ياقوت .

هذا وقد جاء في النويري (نهاية الارب 29/12) عن محمد بن العباس المسكي عن الاسباب التي حملت البرامكة على اللجوء الى الهند ما هو اقرب الى الصواب فانه يقول : « لما قلت الاموال في ايديهم (الامويين) شرعوا في مصادرات الرعايا واخذوا الاموال من غير وجوهها وتعرضوا الى اموال الاوقاف والايتام فتعرض ولاة خراسان لبرمك ولولده وطالبوهما بالأموال وكان تحت يد برمك أوقاف جليلة فهرب هو وولده من اعمال خراسان الى بلاد الهند فاقاموا بها الى ان ظهرت الدولة العباسية ... ثم قدم خالد بن برمك واخوه الحسين واهلهما على المنصور ، ابي جعفر لما افضت الخلافة اليه فاصطنعهم وادناهم وقربهم الخ (نفس الرواية في صبح الاعشى 126/2)

اولا يجدر بنا ان نتساءل : لماذا هربت ام ابي خالد الى بلاد قشمير ؟ لان اصل البرامكة كان من الهند لا من ايران ولا يخفى ان قشمير كانت مركزا من مراكز البوذية مثل خراسان وتركستان وهناك نشأ برمك ابو خالد على دين آبائه . لاشك ان الفرس ادعوا انتماء البرامكة الى جاماسب وزير كستاسب ليثبتوا انها اسرة ايرانية عريقة في الوزارة ، كما ان العرب حاولوا ضم عظمة البرامكة الى انفسهم بدعوى ان ام خالد حبلته من عبد الله اخي قتيبة لكنها دعاوى بقيت موضع الشك الى ايامنا هذه . اما الماع الشعراء الى عبادة النار في معرض هجو البرامكة فمن السهل جدا عدم الاخذ به لجهل العرب عامة بالفرق بين المجوس والبوذيين ولاطلاقهم « المجوس » على العجم كلهم . واخيرا لا ننسى انه كان في مصلحة البرامكة التضامن مع الفرس لاغراض سياسية ظاهرة .

اذن يتضح لنا كل الوضوح تلك الظاهرة القوية التي تستوقف كل من يتتبع حركة نقل العلوم والآداب الهندية الى بغداد ، وهي عناية البرامكة التامة بهذا الموضوع ، فاننا نراهم يستخدمون جميع الوسائل الممكنة لعرض ما للهند على العرب وهم في ذلك يبدون كانهم يعرضون شيئا من عندهم على غيرهم . انظر اليهم يستقدمون ابن دهن فيعهدون اليه بادارة المستشفى المعروف باسمهم والاشراف على ترجمة الكتب من السنسكريتية (الفهرست 2/45) ثم انظر الى جعفر البرمكي يقدم صالح بهلة الى الرشيد لمعالجة ابن عمه ابراهيم بن صالح (21) ويمنح أبان الشاعر جائزة قدرها مائة الف درهم على نظمه قصة كليلة ودمنة (22) اما قصب السبق في هذا الميدان فكان ليحيى بن خالد — حفيد ابي خالد الذي نشأ في بلاد قشمير وتعلم هناك « النجوم والطب وانواع الحكمة» فانه هو الذي جلب من الهند علماء واطباء امثال بهلة ومنكة وبازيكر قلبرقل وسندباد الذين اقاموا ببغداد ، وربما اسلم بعض اولادهم مثل صالح بن بهلة والذين عرفوا العرب الطب والبلاغة عند اهل الهند (23) ، ولكن اهم الاعمال التي تمت على يدي يحيى بن خالد اطلاقا هو ارساله رجلا في بعثة علمية الى الهند « ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وان يكتب له اديانهم » (الفهرست 345) فان التقرير الذي وضعه هذا المبعوث ربما كان هو المرجع الوحيد للعرب والمسلمين في كل ما يتعلق بالموضوع طوال مدة قرنين الى ظهور ذلك النابغة المحقق ابي ريحان البيروني . وقد وقع في يد ابن النديم نسخة من هذا التقرير مكتوبة « يوم الجمعة لثلاث خلون من المحرم سنة تسع واربعين ومائتين » ومطابقة حرفا حرفا نسخة اخرى بخط يعقوب بن اسحق الكندي ، اورد منه ابن النديم مقتطفات تتضمن وصفا لبعض المعابد وفرق الهنود (الفهرست 345 — 349) ونجد بمقارنة بعض اجزاء هذه المقتطفات بما جاء في كتاب البدء والتاريخ (9/4 الى 19) ان مؤلفه مطهر بن طاهر المقدسي ، وربما اقتبس من ذلك المصدر نفسه . ثم ان بيان مطهر ابن طاهر المقدسي كانه جزء مما جاء (مترجما بالفارسية) في كتاب زين الاخبار لكرديزي في هذا الباب (24) وقد نص الكرديزي على انه اخذ عن كتاب التواريخ لأبي عبد الله محمد بن احمد الجيهاني وزير بني سامان (اوائل القرن الرابع الهجري) ويذهب البروفسور مينورسكي الى ان الجيهاني ربما اعتمد بدوره على كتاب المسالك الكبير (اصل المختصر الذي نشره دي غويه) لابن خرداذبه . هذا وقد عثرت اخيرا على مقطوعتين في كتاب اخبار الزمان المنسوب الى المسعودي (القاهرة 1938 م ص 27)

---

21) ابن ابي اصيبعة 34/2 .
22) الجهشياري 259
23) البيان والتبيين 1 / 92 — منكه كان صحيح الاسلام ، كذا في الحيوان 213/7 .
24) V. Minorsky: Gardizi on India, Bulletin of London, School of Oriental Studies, 1948, XII/3 & 4.

كأنهما أصل الترجمة الواردة فى كرديزي (البندان 41 و 42) .

فهذا هو الجو الذي ازدهرت فيه حركة نقل العلوم والآداب الهندية الى العرب وانما قصدنا الى ابراز بعض العوامل التي ساعدت فى قيامها ، ولاشك أنها بدأت قوية بحيث تكونت للعرب فى اوائل القرن الثالث للهجرة فكرة واضحة جلية عن مدى براعة الهنود فى العلوم والفنون المختلفة ، كما بسطها الجاحظ فى رسالة فخر السودان على البيضان ، وكما يجملها قوله : « انما الأمم المذكورون من جميع الناس اربع : العرب وفارس والهند والروم » (البيان والتبيين 1/ 137) أما استقصاء نتائج هذه الحركة فهو موضوع مستقل لا سيما اذا تذكرنا انها استمرت فيما بعد الى ان بلغت ذروتها فى شخصية البيروني الذي مر ذكره آنفا .

البرانس (جبال) :

جبال البرانس ويقول لها العرب ايضا جبال البرنات ويقولون اذا تجاوزت معابر البرانصة فاعلم انك قد دخلت فى افريقية (الحلل السندسية فى الاخبار والآثار الاندلسية لشكيب ارسلان ج 1 ص 24 ط مصر 1355 ـ 1936) وذكر ارسلان انها تسمى ايضا الجبل الحاجز او الفاصل (ص 36) ويسمون جبال فشتالة بجبل الشارات .